



@Tafsircenter

ميشيل كويبرس
Michel Cuypers

البلاغة السامية في القرآن

ترجمة: خليل محمود اليماني

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies



مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies



المعلومات والآراء المقدّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بميشيل كويبرس (Michel cuypers):

ميشيل كويبرس، هو رجل دين كاثوليكي، من أتباع شارل دو فوكو، عاش في مصر منذ العام ١٩٨٩م كعضو في المعهد الدومينيكي للدراسات الشرقية (IDEO)، وتخصص في الدراسة الأدبية للنصّ القرآني، لا سيما فيما يتعلق بتركيبه وبعلاقاته النصية مع الأدب المقدس المتقدم تاريخياً.

من أهم أعماله:

Le Festin, une lecture de la sourate al-Mâ'ida, Lethielleux, ٢٠٠٧.

في نظم سورة المائدة: نظم آي القرآن في ضوء منهج التحليل البلاغي، وهو مترجم للعربية، ترجمه: عمرو عبد العاطي صالح، وصدر عن دار المشرق عام ٢٠١٦.

La Composition du Caran. Nazm al-Qur'ân, Paris, Gabalda, ٢٠١٢.

في نظم القرآن، وهو مترجم للعربية، ترجمه: عدنان المقراني وطارق منزو، وصدر عن دار المشرق، لبنان، ٢٠١٨.

مقدمة^(١) :

عَرَفْتُ دراسةُ القرآن في السياق الاستشراقي الغربي -ومنذ بدايتها- سيطرةَ المنهج الدياكروني (التعاقبي) التطوري، حيث اهتمت هذه الدراسات بشكلٍ أساسٍ بإعادة ترتيب القرآن بشكلٍ يتزامن مع تطوُّر الأوضاع السياسية والاجتماعية في الجزيرة عشيَّة الدعوة وأثناءها، واعتبرت أنَّ هذا الطريق هو الطريق الملكي لدراسة النصِّ القرآني بشكلٍ يتناسب مع الاهتمامات العقلية الغربية، ومثَّل الكتاب الكلاسيكي لنولدكه (تاريخ القرآن) التثيِّفَ الأكبر لهذا المنهج.

إلا أنَّ الدرس الاستشراقي عَرَفَ لاحقًا تطوُّرًا للمناهج السانكرونية (التزامنية)، والتي أثبتت كفاءة كبيرة في دراسة الكتاب المقدَّس، مما حدَّأ بكثير من الباحثين لمحاولة الاستفادة من هذه المناهج بتطبيقها على النصِّ القرآني.

من هذه المناهج (السانكرونية) التزامنية، ما يعرف بمنهج التحليل البلاغي (من حيث البلاغة هي فنُّ تركيب الخطاب)، والذي عَرَفَ تطوُّرًا كبيرًا ليس فقط في دراسة النصوص المقدَّسة غير الإسلامية، بل إنه قد تم تطبيقه بالفعل من

(١) قام بكتابة المقدمة وكذا التعريف بالأعلام الواردة في نصِّ الترجمات مسؤولو قسم الترجمات بموقع تفسير، وقد تم تمييز حواشينا بأنَّ نصبنا بعدها ب(قسم الترجمات).

قَبْلَ بعض الدارسين في لبنان (اليسوعيين والمسلمين) على الأحاديث النبوية،
وخرج بنتائج شجعت البعض لتطبيقه على القرآن.

وكان في طليعة هؤلاء الأب الفرنسي الدومينيكاني ميشيل كويرس، وهذه
المقالة التي بين أيدينا له هي محاولة منه لتوضيح منهجه الخاص في قراءة
القرآن والإشارة إلى بعض نتائجه، كما أنه يركّز بشكلٍ خاص على ما يراه
إمكانات كبرى يستطيع منهجه فتحها حين يُطبَّق على النصِّ القرآني.

هذه الإمكانيات تتلخص في؛ أولاً: القدرة على تسييق الآيات القرآنية في
مجالات دلالية أوسع تستطيع كشف معانٍ أكثر تماسكاً - وفقاً له - للآيات من
تلك التي تقدّمها القراءة التجزيئية للنصِّ والخارجية له، التي تعتمد على مصادر
خارج النصِّ مثل أسباب النزول. ثانياً: القدرة على كشف التناص بين النصِّ
القرآني وغيره من النصوص المحيطة به والسابقة، والتي لا تنطلق - كما كان
الحال في بعض الدراسات الاستشراقية الكلاسيكية - إلى اعتبار القرآن مُتَحَلِّ
من كتبٍ سابقة، بل تنطلق من كون فهم النصِّ القرآني رهيناً باكتشاف كيفية إعادة
تركيب النصوص السابقة عليه لتحقيق الهيمنة النصية والعقدية عليها.
ثالثاً: كون هذا المنهج قادراً على استكشاف مستويات الآيات داخل فضاء
النصِّ القرآني، فيستطيع التفريق بين آيات محورية وأخرى فرعية، وهذا من شأنه
ضبط عملية تفسير القرآن بالوقوف على المرتكزات المحورية للنصِّ.

المناهج التزامنية مناهج ذات جذّة داخل الدرس الاستشراقي، فتمثّل أحد مساحاته المهمّة، والتي ربما لا تعرف عند الباحثين العرب نفس شهرة المناهج التعاقبية، وينطبق هذا بصورة أخصّ على منهج التحليل البلاغي، من هنا محاولة التعريف بهذا المنهج وما يزيد أهمية هذه المقالة؛ أن هذا التعريف بأحد أهم المناهج التزامنية جاء على لسان رائد تطبيق هذا المنهج على القرآن.

المقالة (١)(٢)

أولاً: ميلاد بحث:

ما وجه الحاجة إلى تفسير جديد للقرآن لا سيما وأن هذا الكتاب لطالما جرى دَرْسه وتحليله وتفسيره بصورة كبيرة منذ نشأة الإسلام؟! فخلال القرون الأربعة الأولى للهجرة على وجه الخصوص (من القرن السابع وحتى الحادي عشر)، اطرَد النتاج التفسيري بصورة ملحوظة، وهو الأمر الذي استمر كذلك حتى يومنا هذا، غير أن الناظر في هذا المتنوع التفسيري يجد أنه قد نصب مَعينه -بعدما طرح كل ما في جعبته- منذ أمدٍ بعيدٍ؛ فطوال قرون عدّة هيمن عليه اجترار تفسيرات القرون الأولى دون كبير إضافة، وإن بقيت مع ذلك هذه

(١) هذه الورقة هي إحدى مشاركات المؤلف في مؤتمر المجتمع الدولي لتاريخ البلاغة: International Society of the History of Rhetoric – (ISDR)، والذي عُقد تحديداً في (ستراسبورغ، يوليو ٢٠٠٧)، وقد شارك المؤلف في مؤتمرات المجتمع الدولي لتاريخ البلاغة عدّة مرات باعتبارها أحد أعضاء مجتمع دراسة البلاغة الكتابية والسامية (RBS). وجدير بالنظر أن المؤلف -وكما ذكر في خاتمة المقالة كما سيأتي- كان قد فقدَ النصّ الأصلي لهذه الورقة؛ ومن ثمّ استبدل بها ورقة أخرى كان قد قدّمها لمؤتمر مشابه عقد في ليون ومارسيليا عام ٢٠١٠، والتي لا تحوي أية تعديلات إلا في العنوان وحذف السطرين الأولين لا غير. (المترجم).

(٢) مترجم هذه المادة: خليل محمود اليماني، باحث في الدراسات القرآنية، ومترجم، له عدد من الترجمات والأعمال العلميّة المطبوعة.

التفسير التقليدية الكبرى بمثابة مراجع رئيسة لا مناص من اللجوء إليها خاصة فيما يتعلق بالمسائل النحوية أو اللغوية، بيد أن تلك التفسير لم تعد كافية لتلبية مشاغل الإنسان المعاصر، الذي بات يعيش في عالم مختلف تمام الاختلاف؛ ولذلك ظهرت في القرن العشرين بعض التفسير المهمة التي اتخذت طابعاً أيديولوجياً، والتي من أشهرها: مؤلفات المودودي، الكاتب الهندي الباكستاني (ت: ١٩٧٩)، والمصري سيد قطب (ت: ١٩٦٦) والذي يُعتبر المنظر الرئيس لجماعة الإخوان المسلمين. إلا أن هذه التفسير تُسقط على النص مشاغل اجتماعية وسياسية معاصرة لا صلة لها بالبتة بتلك التي كانت في القرن السابع الذي شهد ظهور القرآن، ورغم ذلك، فإن التيارات الإسلامية المعاصرة تدعي انبثاقها المباشر من هذه التفسير الأيديولوجية.

وما بين تفسير تقليدي جامد وتفسير أيديولوجي حديث يؤدي إلى العنف الذي نشهده اليوم، تتزايد أعداد المفكرين والمثقفين المسلمين الذين يطالبون بتفسير جديد يُستقى من النص نفسه، ويتخفف من ثقل التفسير التراثي القديم والإسقاطات الأيديولوجية الحديثة، ويستعين في تحليل النص بوسائل العلوم الإنسانية الحديثة، خاصة اللغويات والتحليل الأدبي والتاريخ، كما فعل مفسرو الكتاب المقدس في ميدانهم منذ أواخر القرن التاسع عشر، واستطاعوا أن يحققوا نجاحاً كبيراً.

في الحقيقة، لقد بدأ هذا العمل بالفعل بالنسبة للقرآن منذ منتصف القرن التاسع عشر^(١)، ولكنه وحتى وقت متأخر جداً كان مقتصرًا تقريبًا على المستشرقين الغربيين، والذين استندوا جميعًا في القيام به - وحتى يومنا هذا - على المنهج الشائع والمتمثل في النقد التاريخي، ذلك المنهج الحريص كل الحرص - قبل كل شيء - على تحديد التسلسل الزمني للصور والآيات من أجل فهم تاريخ نشأة النص القرآني، ويُعدّ كتاب (تاريخ القرآن) لمؤلفه الألماني ثيودور نولدكه تجسيدًا لهذا المسلك، ومرجعًا رئيسًا فيه.

وينطلق هؤلاء العلماء في فهم النص من نظرة تعاقبية وتطورية في المقام الأول، كما أنّ لهم نتائجًا علميًا هائلًا يمكننا أن نجده في (موسوعة الإسلام)، وكذلك في (موسوعة القرآن) التي صدرت حديثًا باللغة الإنجليزية.

وعلى الرغم من ذلك، فلا تزال المعامل الكبرى للعقيدة الإسلامية، مثل جامعة الأزهر بالقاهرة، وحتى وقتنا الراهن، تنظر بعين الارتياب التام لهذه المناهج الحديثة، حيث تعتبرها مناهج وُضِعَتْ تجريدية بحتة لا تراعي البتة قداسة النص، فتتناوله كغيره من العلوم الإنسانية، ولا تتردد - على سبيل المثال - في تغيير مواضع بعض آيات القرآن بغرض إضفاء تسلسل أكثر منطقية على نصّه.

(١) يقصد ما ذكره قبل من طرّح تفسير جديد للقرآن يُستقى من النصّ القرآني ويستعين بأدوات تحليل جديدة. (المترجم).

ويجدر القول بأن الطبيعة التجزيئية للنص القرآني هي التي سوّغت اللجوء للمنهج التاريخي النقدي في مقارنته والتعامل معه، وهو الأمر ذاته الذي يتوقع حدوثه بصورة مؤكّدة مع أيّ قارئ للقرآن خاصّة إذا لم يكن مسلماً ولم يعتدّ هذا النصّ منذ طفولته؛ إذ سرعان ما سيشعر بالإحباط وبعدم القدرة على المتابعة بسبب الاضطراب الواضح للنصّ القرآني، والذي لا ينتهج في الموضوعات التي يتناولها نهجاً خطياً يراعي التطور التدريجي في معالجتها كما اعتدنا على ذلك في البلاغة اليونانية، وإنما تأتي الموضوعات فيه مختلطة ومتداخلة؛ فموضوع بالكاد يتمُّ طرّقه سرعان ما يُترك ليعاود طرّقه مرة أخرى بعد فاصل طويل بصورة عرضية، وهناك في بعض الأحيان جُمِل اعتراضية مقحمة لا صلة لها بالسياق، ومن هاهنا سعى أرباب المنهج التاريخي - لانطلاقهم من هذا الاضطراب الذي يشوب النصّ واعتباره أمراً واقعاً- إلى ترتيب النصّ ترتيباً تاريخياً ومنطقياً في الوقت نفسه.

إنّ المعتنين بتفسير الكتاب المقدّس وجدوا أنفسهم أمام ذات الإشكال، حيث واجهوا كذلك نصوصاً مجرّأة ومركّبة من قطع متفرقة؛ مثل نصوص كتب الأنبياء، وأسفار موسى الخمسة أو حتى الأناجيل، ولكن إلى جانب المنهج التعاقبي (التاريخي النقدي)، الذي ينطلق من فرضية تركّب النصّ من قطع متفرقة، وعليه يقوم بتفكيك النصّ من أجل تحديد تاريخ نشأته وكذلك التسلسل الزمني لأجزائه، فقد تطوّر - في مجال الكتاب المقدّس - نهج تزامني

ينطلق من فرضية معاكسة مفادها أن النصّ - في صيغته النهائية، كما هو بين أيدينا- ينبغي أن يكون ذا وحدة وانسجام، وعلى التفسير أن يسلط عليهما الضوء.

وقد أثبتَ هذا المنهج الذي عُرف بـ(التحليل البلاغي) حالياً جدواه في دراسات الكتاب المقدّس، وهو يُعدّ حصيلة قرنين ونصف من الدراسات المستفيضة لنصّ الكتاب المقدّس، كما أنه تم صوغ مبادئ هذا المنهج وقواعده على نحوٍ متميّز منذ عشرين عاماً على يد الأب اليسوعي رولان مينييه -أستاذ اللاهوت الكتابي بالجامعة الغريغورية في روما- خاصّة في اثنتين من مؤلفاته النظرية الرئيسة: التحليل البلاغي، منهج جديد لفهم الكتاب المقدس^(١)، والذي تمت إعادة صياغته وتطويره في عمل ضخّم وهو: رسالة في البلاغة الكتابية^(٢).

إنّ هذا النهج التزامني للنصّ هو الذي حاولتُ منذ اثني عشر عاماً تطبيقه على القرآن، ولذلك فإنّ بحثي يقوم تماماً على تداخل التخصصات، حيث إنني

R. MEYNET, L'Analyse rhétorique. Une nouvelle méthode pour comprendre les textes (١) bibliques : textes fondateurs et exposé systématique, Initiations, éd. du Cerf, Paris ١٩٨٩. Trad. italienne : L'analisi retorica, BiBi(B) ٨, Queriniana, Brescia ١٩٩٢ ; trad. anglaise : Rhetorical Analysis. An Introduction to Biblical Rhetoric, JSOT.S ٢٥٦, Sheffield Academic Press, Sheffield ١٩٩٨.

R. MEYNET, Traité de rhétorique biblique, Rhétorique sémitique ٤, Lethielleux, Paris (٢) ٢٠٠٧ ; deuxième édition revue et corrigée, Rhétorique sémitique ١١, Gabalda, Pendé ٢٠١٣.

أطبّق على التفسير القرآني نظامًا تحليليًا مستمدًا مباشرة من تفسير الكتاب المقدس.

وقد كانت بداية تفكيري في تطبيق هذا المنهج على القرآن هي مجرد فرضية لا غير، ولكن بعد أن أنجز بحث بالفعل قبل حوالي عشرين عامًا بواسطة أربعة باحثين في لبنان: اثنين من المسيحيين اليسوعيين وهما؛ (رولان مينييه^(١))، ولويس بوزيه^(٢))، وآخرين مسلمين وهما؛ (أهيف سنو^(٣))، وناثلة فاروقي)، حيث قاموا بتطبيق هذا المنهج التحليلي على بعض نصوص الأحاديث النبوية (وهي آثار

(١) رولان مينييه (١٩٣٩ - ١٩٩٢)، راهب يسوعي فرنسي، أستاذ علم اللاهوت الكتابي في الجامعة الغريغورية الحبرية بروما، متخصص في الساميات وفي إنجيل لوقا، وقد طبّق منهجية البلاغة السامية على إنجيل لوقا. من أشهر كتبه: (مقدمة في البلاغة الكتابية)، ١٩٨٢، (التحليل البلاغي، طريقة جديدة لفهم الكتاب المقدس، النصوص التأسيسية والعرض المنهجي)، ١٩٨٩. (قسم الترجمات).

(٢) الأب لويس بوزيه، عميد كلية الآداب بالجامعة اليسوعية (جامعة القديس يوسف) بلبنان، ولد في فرنسا ١٩٢٨، انتمى للرهبة اليسوعية في ١٩٤٥، ورسم كاهنًا في ١٩٦٠، اهتم بدراسة العربية وآدابها، كما ارتحل إلى لبنان بعد حصوله على إجازة الآداب من فرنسا، أطروحته للدكتوراه جاءت على مرحلتين؛ في الأولى ترجم فيها الأربعين النووية إلى الفرنسية وعلّق عليها، ١٩٨٢، وفي المرحلة الثانية كانت حول الحياة الدينية في دمشق في القرن السابع الهجري، ١٩٨٨. شارك في عديد اللقاءات والمؤتمرات الدولية، وتوفي عام ٢٠٠٢. من أهم كتبه:

- السلطان صلاح الدين الأيوبي في التراث الفرنسي من العصور الوسطى حتى اليوم.

- قراءة جديدة للنصوص التاريخية. (قسم الترجمات).

(٣) نائب رئيس جامعة القديس يوسف للدراسات العربية والإسلامية ومدير معهد الآداب الشرقية. (قسم الترجمات).

نبوية تُنسب لمحمد) وأثبتوا بناءها وتركيبها تبعاً لقواعده؛ فقد بدأ لي من المنطقي أن أحاول تطبيق المنهج نفسه على نصّ القرآن المعاصر لتلك الأحاديث^{(١)(٢)}. وقد بدأت بتحليل بعض قصار السور، وسرعان ما اتضح لي ملاءمة هذا المنهج بصورة ظاهرة لتحليل النصّ القرآني، حيث لم أكن مضطراً لإدخال أية تعديلات على البناء النظري لهذا المنهج الذي وضعه رولان مينييه؛ إذ كانت كل مبادئ المنهج متحققة في نصّ القرآن تماماً.

وبعد دراسة حوالي ثلاثين سورة قصيرة أو متوسطة الطول - والتي من المقرر عودها إلى بدايات النبوة المحمدية - شرعتُ في القيام بتحليل للسورة الطويلة الخامسة من القرآن (والتي يطلق عليها «المائدة» باللغة العربية)، وقد اخترتُ هذه السورة لأنها - وفقاً للتقليد الإسلامي - هي آخر السور نزولاً؛ ومن ثمّ فتحليلها يبدو مناسباً تماماً لاختبار نجاعة المنهج عند تطبيقه على النصوص القرآنية، سواء ما يتعلق منها ببدايات الوحي أو نهاياته، وكذلك إتاحة استقرار ذلك الأمر على نحو معقول، وبالتالي التثبت من رجاحة القول بأنّ القرآن يتركب في مجموعه وفقاً لذات هذه المبادئ الخاصة بالنّظم^(٣).

(١) نُشر هذا البحث، للمرة الأولى باللغة العربية، ثم باللغة الفرنسية في وقت لاحق تحت عنوان:

Rhétorique Sémitique éd. du Cerf, Paris ١٩٩٨.

(٢) صدر هذا الكتاب الذي يشير إليه المؤلف بالعربية عن دار المشرق ببيروت تحت عنوان: «طريقة التحليل البلاغي والتفسير - تحليلات نصوص من الكتاب المقدّس ومن الحديث النبوي الشريف». (المترجم).

(٣) يعني ذات المبادئ التي يقترحها منهج التحليل البلاغي مما سيأتي عرضه في النقطة التالية من مقاله.

ويبدو أن هذه الطريقة هي إعادة اكتشاف لتقنيات الكتابة وطرائق النظم التي كان يستخدمها الكتبة في العالم السامي القديم في كتابة نصوصهم. إن كلمة (البلاغة) يجب أن تفهم هاهنا بمعنى محدد وهو أنها «فن تركيب الخطاب» (الذي يقابل فقط أحد أجزاء البلاغة اليونانية الرومانية الكلاسيكية، ألا وهو ترتيب الخطاب)^(١). إن البلاغة الكتابية، أو البلاغة السامية على نطاق أوسع، تختلف تمام الاختلاف عن البلاغة اليونانية التي ورثتها ثقافتنا الغربية (وكذلك ورثتها الثقافة العربية نفسها بعد انفتاحها السريع على التراث اليوناني)؛ ففي البلاغة اليونانية، يتبع الخطاب نمطاً خطياً: حيث يبدأ بمقدمة، يليها عرض للموضوع ثم خاتمة، أو -باستخدام المصطلحات الكلاسيكية-

=

تجدر الإشارة هاهنا لأمر مهم وهو أننا قمنا بتعريب مصطلح (composition) بـ(النظم) تبعاً لما هو متبع في ترجمات أعمال كويرس، ويجدر التنبيه هاهنا لكون «نظم القرآن» يراد به لدى كويرس ذلكم التركيب الكلي للنص والقواعد الحاكمة لطريقة بنائه والكيفيات التي يتألف منها متنه، وهذا أمر يباين: - المقصود بمصطلح النظم في التراث، والذي يدور بصورة عامة على بحث التناسب بين الآيات والسور ووجوه الارتباط بينها، لا النظر في الكيفيات التي يتركب بها النص ذاته. - البحث الموضوعاتي والمفاهيمي الكلي للقرآن، والذي قام به عدد من الدارسين مثل الشيخ محمد الغزالي، وفضل الرحمن، والذي يهدف لبيان الموضوعات والمحاور الكبرى التي يعالجها القرآن لا النظر في قواعد بناء متن النص ذاته. (المترجم).

(١) تتكون البلاغة اليونانية -كما هو معلوم- من ثلاثة أركان رئيسة؛ وهي: إبداع الأفكار، وترتيبها، وحسن التعبير عنها. (المترجم).

يتضمن الخطاب: (استهلال- سرد- برهنة وحجاج- خاتمة)، بينما تعتمد البلاغة السامية على مبدأ بسيط، ألا وهو التناظر، والذي يتحوّل إلى مجموعة معقدة من التوازيات، مما يعطي النصّ مظهرًا هندسيًا أو فضائيًا أكثر منه خطيًا، وبالتالي فإنّ فهم اتساق النصّ يختلف في البلاغة السامية عنه في البلاغة الكلاسيكية الغربية.



ثانياً: المنهج المتبع:

قبل الشروع في دراسة النصّ عن كثب، سألخص بإيجاز الجوانب الجوهرية في هذا المنهج.

يمكن أن يتخذ التناظر الذي يهيمن على النصّ ثلاثة أشكال أو ثلاث (صور من النظم)^(١).

(١) لمنهج التحليل البلاغي مجموعة من المصطلحات الخاصة التي تعبّر عن تقنياته في تحليل النصّ وتقسيماته له، وهذه المصطلحات جرى تعريفها في كتاب: «طريقة التحليل البلاغي والتفسير» الصادر عن دار المشرق، وقد التزمّت هذا التعريف الترجمات العربية لأعمال كويبرس (نظم سورة المائدة، نظم القرآن)، وبالتالي فإننا سنلتزم في ترجمتنا لهذه المصطلحات ذات التعريف. ومن هذه المصطلحات - ليكون القارئ على بصيرٍ بها - إجمالاً:

- ١- ما يتعلق بمستويات النظم: وهذه المستويات منها المستويات الدنيا من النظم التي لا تستقل بذاتها وتؤلف بالضرورة جزءاً من مجموع نصّي أوسع منها، وهذه لها مجموعة خاصة من المصطلحات؛ وهي: «العنصر» والذي يقابل بصورة عامة ما تطلق عليه اللسانيات (المفردة) أو الوحدة اللغوية الصغرى، «والمفصل» والذي يعني مجموعة من العناصر (المفردات)، «الفرع» والذي يعبر عن مجموعة من المفاصل، «القسم» والذي يعبر عن مجموعة الفروع، و«الجزء» الذي يعبر عن مجموع الأقسام. وأما المستويات العليا من النظم والتي تمثل أجزاء لها استقلال فمصطلحاتها كالتالي: «المقطع» والذي يؤلف كلاً ومجموعاً متميّزاً يمكن قراءته باستقلال عما سبقه وما يليه، «السلسلة» وهو مستوى أعلى من المقطع ويشمل أكثر من مقطع، «الشعبة» وهي مستوى أعلى من السلسلة وتحتوي بالطبع عدداً من السلاسل.
- ٢- ما يتعلق بصور النظم: والتي تتمثل إجمالاً في ثلاثة: النظم المتوازي، والمعكوس، والمحوري. وهذه المصطلحات سوف يشرحها الكاتب في نصّ كلامه ويبين دلالاتها. (المرّجم).

١. **التوازي**: عندما تكون العناصر ذات الصلة معروضة بنفس الترتيب،

ومثاله: أ ب ج // أ "ب" ج "

- بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

- الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِیْنَ. [الفاتحة: ١، ٢]

ويمكن للتوازي أن يكون مترادفياً، كما هو موضح في المثال السابق، أو

معكوساً كما في المثال التالي:

= فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ

= وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ. [القارعة: ٦-٩]

ويمكن أن يكون كذلك تكاملياً وذلك عندما يكمل الطرف الثاني من التناظر

معنى الطرف الأول، ومثاله:

= اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

= صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. [الفاتحة: ٦، ٧]

٢. **النظم المعكوس**: عندما تكون العناصر ذات الصلة معروضة بطريقة

عكسية: أ ب ج / ج "ب" أ" كما سنرى في الأمثلة فيما بعد.

٣. **النظم المحوري**: عندما يتوسط عنصر محوري طرفي التوازي: أ ب ج

/x/ ج "ب" أ"، وسوف نعرض أمثله أيضاً لاحقاً.

تتواجد صور النظم هذه على مستويات نصية مختلفة: على مستوى الآيات أو مفصل من آية، ثم على مستوى مجموعة مكونة من مفصلين أو ثلاثة، وهكذا دواليك، حتى النصّ بأكمله، وذلك من خلال مجموعة من التداخلات التي تذكّرنا بلعبة الدُمى الروسية^(١).

وفي كلّ مستوى يمكن لحظ التناظرات من خلال المؤشّرات التي يعطيها النظم، فالعناصر قد تتناظر:

- في بداية أو نهاية أو وسط الوحدات النصية المتناظرة^(٢).
- أو في نهاية وحدة نصية وبداية الوحدة اللاحقة؛ للربط بينهما، كما الحال فيما يطلق عليه «كلمات الحبك»^(٣).
- أو في بداية ونهاية الوحدة؛ لتحديدها.



(١) وهي عبارة عن دُمى تحوي داخلها مجموعة أخرى من الدُمى بأحجام متناقصة، بحيث تتضمن الأكبر حجمًا الأصغر منها، وهكذا. والغرض بيان أن النصّ في كليته يكتنز - كما في هذه الدُمى - بنى متدرّجه في أحجامها. (المترجم).

(٢) حينما تقع العناصر في بدايات الوحدات تسمى بالعناصر البدئية، وكذلك تسمى بالعناصر المركزية والنهائية عندما تقع في وسطها أو نهايتها. (المترجم).

(٣) كلمات الحبك هذه من مصطلحات علماء الكتاب المقدّس والمعتمنين ببيان بلاغته، وهي تقابل ما يمكن تسميته بالعناصر الوصلية أو كلمات الوصل. (المترجم).

ثالثاً: مثال من الآيات ١٧ إلى ٢٠ من سورة المائدة:

تتكوّن هذه السورة الطويلة -والتي تتناول مجموعة متنوعة للغاية من الموضوعات على المستوى الأعلى من النظم- من شعبتين كبيرتين (١-٧١ / ٧٢-١٢٠)، تضم كل منهما ثلاث شُعب فرعية، مرتّبة بطريقة النظم المعكوس، على النحو التالي:

أ (١-٢٦).

ب (٢٧-٥٠).

ج (٧١-٥١).

ج" (٧٢-٨٦).

ب" (٨٧-١٠٨).

أ" (١٠٩-١٢٠).

تتناول الشعبتان الفرعيتان المتطرفتان (أ/ أ") الدخول في الميثاق: فالمسلمون المؤمنون الذين دخلوا في الميثاق، واليهود والنصارى الذين يرفضون الدخول فيه (أ)، والنصارى الذين دخلوا فيه بالفعل أو تمّت دعوتهم لدخوله (أ").

أما الشعبتان الفرعيتان الوسطيتان (ب/ ب") فهما ذواتا طابع تشريعي بحت.

أما الشعبتان الفرعيتان المتجاورتان (ج/ج")، فتناولان علاقات أهل الكتاب بالمجتمع الإسلامي.

ونظرًا لعدم استطاعتي عرض التحليل المفصّل لهذه السورة بالكامل في هذه الورقة، فإنني سأكتفي فقط بتحليل مقتطف منها (من الآية ١٥ إلى ٢٠)، وهو مقطع له أهمية دينية، حيث يظهر محمد كرسول أرسله الله إلى (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى، لتصحيح أخطائهم العقائدية عن الله وعن المسيح وعن أنفسهم.

وبدون الولوج إلى كثيرٍ من التفاصيل الفنية الخاصة المتعلقة بالمستويات النصية الأدنى، فإننا سندرس المستوى الأعلى ألا وهو المقطع، والذي يبدو أنه يتكون من ثلاثة أجزاء، مرتبة وفقاً لبنية النظم المحوري، 'A/x/A'.

١٥ [١] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ [ب] قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا [ج] يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ
مِنَ الْكِتَابِ [د] وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ.

[هـ] قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ؛ [١٦] [١] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ - [ب] وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، [د] وَيَهْدِيهِمْ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

١٧ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا:

﴿ب﴾ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»

﴿ج﴾ قُلْ: «فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [د] إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا».

﴿ه﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

﴿و﴾ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ،

﴿ز﴾ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٨ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى:

﴿ب﴾ «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ».

﴿ج﴾ قُلْ: «فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ [د] بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ».

﴿ه﴾ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ [و] وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ.

﴿ز﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

﴿ح﴾ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

١٩ [أ] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ [ب] قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا [د] يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ [هـ]

أَنْ تَقُولُوا: [ج] مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ!

[ج] فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ!

[ح] وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فمن الواضح أن الجزأين المتطرفين (١٥ و ١٩) يتلاقيان ببعضها البعض، وكذلك الجزآن الفرعيان من الجزء المركزي (١٧ و ١٨). أما عن مواضع التناظر بين الجزأين المتطرفين (١٥-١٦؛ ١٩) فهي كما يلي:

- يشتمل كل جزء منها على قسمين.

- يبدأ القسمان الأوليان بذات البداية: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ} {١٩ أ ب؛ ١٥ أ ب}، فموضوع إرسال النبيِّ لمهمة التبيين، المذكور في بداية المقطع، يعاود الظهور مرة أخرى في النهاية.

- يبدأ القسمان التاليان كذلك ببداية واحدة {قَدْ جَاءَكُمْ/ قَدْ جَاءَكُمْ}، متبوعة في كل واحدة بعنصرين يصفان الرسول (محمد) بوصف مرتبط بالرسالة التي يحملها: {نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ} {١٥ د} و {بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ} {١٩ د}.

وهكذا يدور الجزآن الطرفيان بالكامل حول مهمة النبي باعتباره مرسلًا من عند الله لبيان الكتاب المقدس.

ويتكون الجزء المركزي (١٧ و ١٨) من جزأين فرعيين متوازيين، يشتمل كل منهما كذلك على قسمين:

- يحتوي الفرع الأول من الأقسام الأولى في كل مرة على بيان لعقيدة أهل الكتاب، حيث يؤكد النصارى على ألوهية {المسيح ابن مريم} (١٧ أ-ب)؛ ويدعي اليهود والنصارى أنهم {أبناء الله وأحبّاءه} (١٨ أ-ب).

- يُطلب من النبي بعد ذلك في كل مرة أن يجيب: {قل} وذلك عبر تذكير من يحاورهم بضعفهم البشري الذي يتناقض^(١) مع ادّعائهم بأنهم أبناء الله (١٧ ج، ١٨ ج-د)، وكذلك ضعف المسيح الذي لو أراد الله، لأهلكه (١٧ د)، وكيف أن ذلك يعدّ دليلاً على عدم ألوهيته.

- ثم يتبع ذلك، في القسمين الثانيين، سلسلة من الجمل الخبرية العقائدية:

* يتكرر التذكير بمُلك الله المطلَق للكون في صيغة متطابقة: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} (١٧ هـ، ١٨ ز).

(١) ليس ضعفهم البشري فقط هو موطن الحجج القرآني في نفي دعوى أن اليهود والنصارى أبناء الله وأحبّاءه، وإنما كذلك محاسبتهم وتعذيب عصاتهم. (المترجم).

* يتم التأكيد على كمال الإرادة المطلقة لله أولاً في الخلق {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} (١٧هـ)، ثم في قدرته على المغفرة والعذاب {يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}، (١٨هـ-ز).

ومن هاهنا فإنَّ الجزء المركزي يعبر عمّا ذكره القسم الأول للمقطع من أن النبي يبيّن ما تم إخفاؤه من قبل أهل الكتاب (إضافة لبيان طلاقة القدرة الإلهية)، ويقوم بالبتّ في بعض القضايا الأخرى (كالبنوة الإلهية للمسيح والمؤمنين من اليهود والنصارى).

إنَّ مجمل المقطع يمكن أن يُتصوّر أنّ تركيبه جرى بطريقة معكوسة: فالجزء المركزي ١٧-١٨ يظهر محاطاً بجزأين طرفيين، ولكن كما أنّ هذا الجزء المركزي ذاته مكون من جزأين فرعيين متوازيين فإنَّ مجمل المقطع يمكن تصوّر بنائه بطريقة النظم المعكوس (أ ب / ب "أ")، وهو ما يؤشّر عليه التكرار من جانب آخر؛ لأنه يأتي في نهاية الطرف (١٧ و) جملة ختامية عقائدية^(١) مماثلة لما في خاتمة الطرف الأخير (١٩هـ): {وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وهو ما يثبت أن الطرفين رُتّباً بطريقة معكوسة.

(١) يقصد بهذه الجمل ما يكون في ختام أو آخر آي القرآن من ذكر لصفات الله وأسمائه من نحو ذكر أن الله عليم بذات الصدور... إلخ. (المترجم).

أ

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [ب] قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴿ج﴾ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴿د﴾ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ.

﴿ه﴾ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ؛ ﴿١٦﴾ ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ - ﴿ب﴾ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، ﴿د﴾ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

ب

﴿١٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿ب﴾ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» ﴿ج﴾ قُلْ: «فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» ﴿د﴾ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا».

﴿ه﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. ﴿و﴾ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، ﴿ز﴾ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ب

^{١٨} [١] وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى:

[ب] «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ».

[ج] قُلْ: فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ [د] بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ.

[هـ] يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ [و] وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ.

[ز] وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

[ح] وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

أ

^{١٩} [١] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ [ب] قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا [ج] يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ [د]

أَنْ تَقُولُوا: مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ!

[و] فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ!

[ز] وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وفي ختام هذا التحليل، نرى أنه يجب قراءة النصّ القرآني وفقاً لمبدأ التناظر الذي رُكّب هذا النصّ تبعاً له، وهو ما سيكفل تطبيقه عدم تفسير عنصر أو آية من القرآن بمعزل عن سياقها، وذلك خلافاً لما تم عليه الأمر في غالب التفسير الإسلامي التقليدي منذ بداياته وحتى يومنا هذا^(١).



(١) القول بأن المنتج التفسيري للقرآن يفتقد لمراعاة السياق بهذا التعميم كونه يسير في التفسير آية آية - والذي نقع عليه كذلك في كثيرٍ من الدرس العربي والإسلامي المعاصر - قولٌ فيه مبالغة؛ فالمفسرون اعتبروا السياق في إنتاج التفسير، كما أنّ السياق هو أحد أدوات الترجيح في الموازنة بين المقولات التفسيرية كما هو معلوم لمن يطالع المدونة التفسيرية، والسير في تفسير القرآن آية آية لا يعني أبداً إهمال المفسرين للسياق والانقطاع عنه عند كشفهم لمدلولات الآي. إنّ اقتراح طرائق تحليل جديدة تُعين على استثمار السياق وتزيد من فعالية توظيفه كأداة تفسيرية أمرٌ مقبولٌ جداً إلا أنّ توَسُّل تأسيس أهميته بدعوى افتقاد المدونة التفسيرية لاعتبار السياق في التفسير على هذا النحو، أمرٌ مشكّلٌ، وهو ما يبرز للمتأمل وهنه يبسر لدى إنعامه النظر في حاصل تطبيق هذه المناهج عند من يطبقونها سواء من المسلمين أو غيرهم ومقارنته بالمنتج التفسيري التراثي، حيث يظهر من غالبه اعتبار السياق لدى المفسرين وليس العكس كما يُدعى. (المترجم).

رابعا: التحليل البلاغي يُمهّد لقراءة سياقية للقرآن:

تكمن الأهمية الكبرى للتحليل البلاغي في حقيقة الأمر في إتاحتها إمكان قراءة سياقية للنص، أي: قراءة من شأنها وضع كل عنصر من عناصر النص في السياق الأدبي للمجموعة الدلالية التي ينتمي لها.

إن تجزئة النص كانت - بلا شك - السبب الرئيس وراء تناول جميع التفاسير التقليدية للنص آية تلو الأخرى، بطريقة يمكننا وصفها بـ(الذرية)، لا تراعي الاعتبار السياقي المباشر للآيات. ومما عزّز هذه القراءة (الذرية)، هو أن الآيات جرى توّسل تفسيرها بعناصر من خارج النص، وهو ما يُعرف فنيًا بـ(أسباب النزول)، وذلك بالرجوع إلى أحداث وقعت في حياة النبي، مستمدة من الأحاديث، فيذكر المفسرون السبب التاريخي المزعوم الذي من أجله نزلت هذه الآية أو تلك، ويعطونها - في ضوءه - معنى معينًا، ولكن عندما تُوضع آية ما في سياقها الأدبي الذي يحدده النظم النصي الذي تشكّل هذه الآية جزءًا منه، فإن معناها الحقيقي يتكشف في أغلب الأحيان دون الحاجة إلى اللجوء إلى (أسباب النزول)، والتي يمكن للمرء أن يفكر أنها غالبًا تم وضعها لاحقًا، لشرح المساحات الغامضة في النص.

وأذكر هنا مثالاً له دلالة خاصّة، وهو الآية ١٠٦ من سورة البقرة والتي يقول فيها الله: { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا }. فهذه الآية يعتبرها

الفقهاء بمثابة الأصل القرآني لنظرية النسخ عندهم، حيث تنسخ بعض الآيات - تبعاً لتلك النظرية - آياتٍ أخرى. وقد أمكن - من خلال هذه النظرية - الخلاص من إشكال التناقضات الظاهرة بين الآيات، وخاصة الآيات التشريعية، حيث اعتبرت الآيات المتأخرة ناسخة للمتقدمة، ولكي يتم تحديد هذه الآيات المتأخرة، اعتبر أنها الآيات ذات المضمون الأشد والأكثر تقييداً، وأنها بالتالي ناسخة للآيات الأكثر رفقاً أو الأكثر تسامحاً التي كانت قبلها، وذلك وفقاً لمبدأ التربية الإلهية، التي قد تتسامح مؤقتاً إزاء بعض السلوكيات ثم تُحرّمها في نهاية الأمر.

ولكن، إذا ما عدنا إلى الآية ١٠٦ من سورة البقرة ووضعناها في سياقها، فإننا سنلاحظ أنها لا تتفق مع التأويل المذكور بشأنها، حيث إنها في الواقع ليست إلا ردّاً على اليهود الذين كانوا يعترضون على محمد لأنه ذكّر - خلال تلاوته للقرآن - آيات من التوراة بها تعديلات لا تطابق نصّ التوراة. وردّاً على هذا الاتهام (بالتحريف)، فإن الآية تُبيّن أنّ الله له الإرادة المطلقة في نسخ وحي سابق بآخر جديد أفضل منه، فالأمر يتعلق هنا بنسخ القرآن للتوراة لا بنسخ القرآن لنفسه. وقد قام العديد من المفسّرين المسلمين في القرن العشرين - (من أمثال: محمد علي، ومحمد أسد، ويوسف علي، وحتى المودودي على الرغم من كونه أحد آباء الإسلاموية الحديثة)، وكذلك مؤخراً الفرنسية (المتخصصة في

الإسلاميات) جينيف جوبيو^{(١)(٢)} - بالتنبيه على التفسير الخاطيء لهذه الآية، ولكن دون جدوى؛ إذ لا يزال القول بالنسخ مستمرًا ومنتشرًا كمسلمة يقينية شبه عقديّة. وفي الستينيات، أعرب أحمد حسن -الباحث الإسلامي- عن دهشته قائلاً: «يبدو غريباً أنّ بعض أبرز القامات المرجعية في التفسير، قد أخطؤوا في فهم المغزى الرئيس لهذه الآية»^(٣).

Voir G. GOBILLOT, « Espoir en la pensée et pensées de l'espoir », intervention (١) au colloque *Comment vivre l'interculturel (Islam-Occident) ? Obstacles et perspectives d'ouverture*, organisé à l'Université de Lyon ٣ par le CRITIC, ١-٣ février ٢٠٠٧, à paraître dans les actes du colloque. Voir aussi notre ouvrage commun, *Le Coran, Le cavalier bleu*, Idées reçues, Paris, ٢٠٠٧, ٩٣-٩٧.

(٢) جينيف جوبيو؛ حاصلة على دكتوراه الدولة، وأستاذة جامعية في الحضارة العربية والإسلامية منذ عام ١٩٩٣، متخصصة في تاريخ الفكر في القرون الوسطى: الدين، والفلسفة، والتصوف.

من أعمالها:

- Le Livre des nuances, Geuthner, ٢٠٠٦.

- (كتاب الفروق)، دار نشر: Geuthner, ٢٠٠٦.

- La Conception originelle, IFAO, ٢٠٠٢.

- (الفطرة)، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ٢٠٠٢.

(قسم الترجمات).

«... it looks strange that some of the most eminent authorities of *tafsîr* have missed the (٣) central point of this verse » (AHMAD HASAN, « Theory of naskh », *Islamic Studies IV* (١٨٩) ١٩٦٥).

وتحظى قضية النسخ هذه بأهمية قصوى في الوقت الراهن، حيث إن الأصوليين الإسلاميين يستخدمون حُجّة النسخ في اعتبارهم الآيات الأشدّ قسوة في سورة التوبة (الآيات: ٢٩ و ٧٣) على وجه الخصوص، والتي تحرّض المسلمين على محاربة الكفار = ناسخة لحوالي ١٣٠ آية أكثر تسامحًا وتفتح أبواب التعايش السلمي بين المسلمين والمجتمعات الأخرى، وبالتالي فإن المتطرفين (لتمسكهم بمنطق النسخ كما يفهمونه) يعلنون - مثلهم كمثّل بعض المفسّرين القدامى - أن سورة التوبة هي بالضرورة آخر السور نزولًا، لا سيما وأنها تنسخ الآيات الأكثر (انفتاحًا) والأكثر تسامحًا الواردة في سورة المائدة، في حين أن كلّ شيء في سورة المائدة يُظهر أنّ الأمر يتعلق بنصّ يحمل وصية ختامية للوحي القرآني.



خامساً: من التحليل البلاغي إلى التناص:

لا يتقرر هذا القول الأخير الذي ذكرناه من مجرد التحليل البلاغي الصّرف لسورة المائدة^(١)، وإنما كذلك مِنْ وَصَل هذا التحليل بالتناص وضمّه إليه، حيث يتجاوز أحياناً سياق إحدى آيات القرآن النصّ القرآني إلى نصوص أخرى يعتلق معها القرآن، وسأعطي أولاً مثلاً على ذلك مستلّاً من المقطع السابق الذي قمنا بتحليله.

هناك مجموعة من العناصر، في الجزء الأول من هذا المقطع، تربط بينه وبين نصّ من إنجيل لوقا.

فتعبير {سبل السلام} [١٦أ] لم يرد نهائياً في القرآن في غير هذا الموضوع، ولكنه ورد في نشيد زكريا، في إنجيل لوقا، وكان مصحوباً بعدة عناصر أخرى يمكننا أن نجدها كذلك في هذه الآية رقم ١٦ من السورة:

المائدة (١٥ - ١٧)	نشيد زكريا (لوقا، ٧٦-٧٩)
<p>١٥ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُولُنَا، ^[ب] يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ^[ج] وَيَعْفُو</p>	<p>٧٦ وَأَنْتَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ سْتُدْعَى نَبِيَّ الْعَلِيِّ لِأَنَّكَ تَسِيرُ أَمَامَ الرَّبِّ لِتُعَدَّ طَرُقَهُ، ٧٧ وَتُعَلِّمَ شَعْبَهُ</p>

(١) يقصد ما ذكره من أن السورة الخامسة (المائدة) هي بمثابة نصّ يحمل وصية ختامية للوحي القرآني. (المترجم).

عَنْ كَثِيرٍ ^[د] قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ
وَكِتَابٌ مُبِينٌ ^[١٦] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنَ
اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ^[ب]
وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِهِ ^[ج] وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ^[١٧] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.

الخلاص بغفران خطاياهم. ٧٨
تلك رحمة من حنان إلهنا بما
افتقدنا الشارق من العُلى ٧٩ فقد
ظهر للمقيمين في الظلمة وظلال
الموت ليسدد خطانا لسبيل
السلام.

ففي كِلا النَّصِينِ يَمْنَحُ الرِّسُولُ قَوْمَهُ الْمَعْرِفَةَ: معرفة الخلاص بغفران
الذنوب [لوقا ١ / ٧٧]، ويوضح {كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} [المائدة:
١٥].

ويتماثل «النور» [المائدة: ١٦] مع «الشارق من العُلى» [لوقا ١ / ٧٨]، حيث
يُفَسِّرُ «الشارق من العُلى» - في التقليد اليهودي - بالمسيح نفسه «الشارق الذي
يجلب النور» ^(١).

وفي كِلا النَّصِينِ كَذَلِكَ، تم مَنَحُ النور لهؤلاء الذين يقبعون في «الظلمة»،
وجرت هدايتهم إلى «سبل السلام».

(١) La Bible de Jérusalem, en note à Lc ١,٧٨.

ومن ثمّ يظهر نصّ السورة كما لو كان إعادة قراءة لنشيد زكريا الذي هو بمثابة إعادة قراءة لإشعيا ٩، ١: «الشَّعْبُ السَّالِكُ فِي الظُّلْمَةِ أَبْصَرَ نُورًا عَظِيمًا والمقيمون في بقعة الظلام أَشْرَقَ عَلَيْهِمُ النُّورُ». وقد تم اقتباس النصّ نفسه من إشعيا في إنجيل متى تقدمةً ومدخلاً لدعوة عيسى [متى ٤، ٤].

ويلاحظ أنّ لسائر هذه النصوص اعتلاقاً ظاهراً جدّاً بالمسيح؛ ولذلك، فإن عودة ظهور عناصر من نشيد زكريا في السورة تُضفي على محمد ورسالته ذات السمات التي للمسيح، وهو الأمر الذي يتجلّى بصورة ظاهرة جدّاً في الآية التالية التي تنفي ألوهية {المسيح ابن مريم} [المائدة: ١٧].

وتكشف القراءة المتأنية للجزء الأول من الشعبة الفرعية من السورة عدداً من الذكريات الخاصة بالكتاب المقدّس، والتي عند تجميعها معاً، لا تترك مجالاً للشكّ في كون هذه السورة هي بمثابة اختصارٍ وإعادة تفسيرٍ لسفر التثنية: مجموع التعاليم والقصص؛ الميثاق -والذي يمثل الموضوع الرئيس للسورة- والحديث عن نشأة شعب جديد، ودخول الأراضي المقدّسة، والأوامر بضرورة التزام التعاليم، والمفردات خاصّة تكرار لفظ «اليوم» من الله، تلك السمة المميزة لسفر التثنية، في الآيتين الثالثة والخامسة:

{الْيَوْمَ يَسِّرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ } [المائدة: ٥]. كل هذه العناصر هي سمات مميزة لسفر التثنية، والذي يعتبر الوصية النبوية لموسى التي تختتم أسفار موسى الخمسة، أي التوراة: حيث مات موسى في نهاية الكتاب.

وتبعاً للتقليد الإسلامي، يعود نزول سورة المائدة إلى حجة الوداع التي أداها النبي ثم توفي بعدها بفترة وجيزة جداً. إن تشابه الموقف مذهل، فلئن كان موسى لم يدخل الأراضي المقدسة بنفسه، فإن محمداً مع جماعته المنتصرة، استطاع ذلك ودخل أرض مكة المقدسة.

إن التناص بين سورة المائدة وسفر التثنية يسلط الضوء بوضوح على طابع الوصية النهائية الذي تحمله هذه السورة، وهو الأمر الذي ينفي فكرة نسخها بنص لاحق عليها كالقول -الذي يذكره البعض- بأنها سُخِطت بسورة التوبة.

وقد يكون من الضروري أن نقارن هنا أيضاً ما بين نهاية سورة المائدة والفصل السادس من إنجيل يوحنا، ولكنني أحيل في مطالعة ذلك على كتابي^(١)؛ لأن عَرَض تلك المقارنة سيأخذنا بعيداً عما نحن بصدد.

(١) يقصد كتابه (le festin) الذي حلل فيه سورة المائدة بشكل تفصيلي كامل وفقاً لقواعد منهج التحليل البلاغي. (المترجم).

إنّ قراءة القرآن عبر التناسل لا يجب أن يفهم منها القول بأن القرآن هو محض انتحال أو نسخة عن الكتاب المقدّس أو أنه متأثّر به، كما هي العادة في الجدل المسيحي المضاد للإسلام، فحقيقة الأمر أنّ القرآن «يعيد قراءة» النصوص المقدّسة السابقة، كما الحال في الكتاب المقدّس نفسه، والذي لطالما أعاد قراءة نصوصه وأعاد تفسيرها: ومن ذلك قصة الخروج الواردة في العهد القديم، والتي كثيرًا ما تُعاد قراءتها، أو يعاد تفسيرها في العهد الجديد، وقد مرّ بنا كيف أعاد القديس لوقا والقديس متى تفسير ما ذكره إشعياء.

إنّ القرآن يقرأ كذلك النصوص السابقة لإعادة توجيهها ودمجها في سياق بناء عقدي جديد، وهو الأمر الذي يُفضي عدم الانتباه إليه ببساطة إلى عدم القدرة على فهم نصّ القرآن.



سادساً: التحليل البلاغي ومستويات المعاني:

سأختتم كلامي بالعودة إلى التحليل البلاغي؛ لبيان قدرته على إتاحة اكتشاف مستويات المعنى في النصّ، فقد كتب العالم المغربي عبده الفيلاي الأنصاري، في كتابه (إصلاح الإسلام)؟ عن الإمام الإصلاحية العظيم محمد عبده (ت: ١٩٠٥):

«إنّ توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الذي به يسمو الإنسان - كما أشار - هي العقائد الأساسية التي تشكّل جوهر العقيدة الإسلامية، أما الباقي فهو مجموعة من الأحكام التي تهدف إلى تطبيق المبادئ الأساسية للإسلام في سياقات تاريخية معينة. وهذه المعتقدات الأساسية هي بالتالي مبادئ عالمية، واضحة في إطار أيّ عقيدة من عقائد التوحيد، كما إنها دائماً ما تتوافق مع التطلّعات الأخلاقية للإنسانية...»^(١).

وكذلك كتب مؤخرًا العالم المصري نصر أبو زيد:

«إنّ عدم التفرقة بين ما هو تاريخي وما هو دائم مستمر في دلالة النصوص الدينية يؤدي إلى الوقوع في كثيرٍ من العثرات والمتهات»^{(٢)(٣)}.

(١) A. FILALI-ANSARY, *Réformer l'islam ? Une introduction aux débats contemporains*, Paris, La

Découverte, ٢٠٠٥, ٣٠. Les soulignements sont de l'auteur.

(٢) NASR ABOU ZEID, *Critique du discours religieux*, Sindbad – Actes Sud, ١٩٩٩, ٧٢.

(٣) قد أوردت نصّ نصر أبو زيد الذي أورده المؤلف من كتاب نصر (نقد الخطاب الديني)، سينا للنشر، القاهرة، ط: ١٩٩٤، ص: ٢٠٩. (المترجم).

إنّ التحليل البلاغي للسورة الخامسة يمنح أساساً موضوعياً، موجوداً في بنية النصّ ذاته، للتمييز بين الآيات التي تختلف مقاصدها؛ فيحمل بعضها طابعاً عالمياً ويحمل بعضها الآخر طابعاً ظرفياً.

وثمة حقيقة مدهشة؛ فعند القراءة المستمرة لهذه السورة نلاحظ -إلى حدّ ما بانتظام- أنه خلال كلّ عشر آيات تقريباً هناك آية أو فرع يقطع السياق المباشر لهذه الآيات، فيحمل لهجة أكثر انفتاحاً، وأكثر تسامحاً، وأكثر عالمية، في وسط آيات أكثر صرامة، أو أكثر سجالية، أو تحمل طابعاً تاريخياً ظرفياً. وهذه الآيات (يقصد تلك التي تقطع السياق) تتواجد جميعها بالضبط في وسط البنى البلاغية المحورية الكبرى. والمحور -في البلاغة السامية- له أهمية خاصّة، حيث يُعتبر مفتاحاً لتفسير مجموع النصّ الذي يحتلّ مركزه. وهذه الآيات المحورية الأكثر رقة هي التي تمثّل حكمة عالمية، وبالتالي فإنّ لها الأولوية في بناء معنى النصّ بخلاف الآيات الأشدّ قسوة والأكثر تقييداً والتي تأتي تالية للأولى؛ كونها ظرفية متعلقة بمحيط خاصّ.

وتتعلق هذه الآيات المحورية إما بمجال الأخلاق أو بمجال العلاقات مع الأديان الأخرى. وسأذكر هنا من ضمنها الثلاثة الأكثر أهمية.

ففي النصف تماماً من السلسلة البالغة الطول [المائدة: ٨٧-٩٦]، والتي انصبّت على تعديد قائمة من المحرّمات ومن ضمنها المشروبات المُسكرّة، تظهر فجأة الآية ٩٣ لترفع الحظر عن أيّ طعام للذين {اتَّقُوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ}، ونصّ الآية هو: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}.

وبعبارة أخرى، تُبيّن الآية أنه يمكن تجاوز حرمة المطعومات للأفراد متى كانوا يحيون حياة روحية سامية وحقيقية؛ ويظهر التأكيد على ضرورة توافر هذا الشرط من خلال الإلحاح على تكراره في الآية، وبالتالي فالأمر ليس بإباحة مطلقة. وهكذا فهم المفكر الإصلاحي السوداني محمود محمد طه هذه الآية حيث قال: «عندما يصل المرتحل بحثاً عن الروحانية إلى هدفه المنشود، أي: الطهارة التامة للضمير والاعتدال التام للسلوك، يحلّ له تناول سائر المطعومات، كما كان عليه الوضع في الأصل»^{(١)(٢)}.

(١) NASR ABOU ZEID, Critique du discours religieux, ٤٧.

(٢) هذا الفهم الذي يطرحه كويبرس للآية وأن فيها إباحة مشروطة للخمر لنا بإزائه ملحوظتان: أولاً: هذا الفهم يبدو مشكلاً جداً ليس فقط لصراحة الإسلام وشدة نصوصه قرآناً وسنةً في تحريم الخمر وما كان عليه واقع مجتمعه من لدن نزول الوحي، ولكن لأن هذا الفهم الذي ذكره ظهر فعلياً في بدايات الإسلام وتم رفضه بصورة قاطعة، حيث شرب قدامة بن مظعون الخمر احتجاجاً بمثل هذا الفهم، إلا أن فهمه هذا جرى رفضه تماماً وتم حده في شرب الخمر. يراجع تخريجات الآية والكلام عليها في مدونة التفسير لا سيما تفسيري الرازي وابن عاشور. ثانياً: أن المؤلف يعتمد في تحليله هذا على محورية موقع الآية وأنها - تبعاً لقواعد منهج التحليل البلاغي - تمتلك طابعاً عمومياً ولها ديمومة بخلاف ما حولها مما يحمل طابعاً ظرفياً، إلا أننا قد نخالفه في نظرتنا هذه اعتماداً على أن الأصل في الآيات المحورية في منهج التحليل

=

وفيما يتعلق بالعلاقات بين الأديان، فلآيتين المتناظرتين ٤٨ و ٦٩ -واللتين تقعان في منتصف المقاطع الأخيرة للسلاسل (٥٠-١٠٤)، (٧١-٥١-٥٠) - أهمية شديدة الخصوصية في وقتنا الراهن:

محور الفقرة ٥، ٤٨-٥٠	محور الفقرة ٥، ٦٥-٧١
<p>٤٨ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ</p>	<p>٦٩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ</p>

=

البلاغي أنها تكون مميزة عن غيرها بحمولة دلالية عقديّة أو تشريعية أو خلقية شديدة الخصوصية، وبالتالي فالأصل في التعامل معها هو الانتباه لأهمية مضمونها وخصوصيته وعظم فائدته، وأما توظيفها في بيان مسألة العام والظرفي من الآيات فإنه قد لا يتأسس بمجرد كون الآية محورية فحسب، بل إن هذا الحكم يحتاج لقرائن ودلائل أخرى تثبتة وهو ما لا يتوفر في طرحة، كما أننا -في ضوء هذه النظرة- يمكننا القول -تبعاً لمحورية الآية كما يظهر موقعها في التحليل البلاغي الذي قام به المؤلف-: أنها تحمل مضموناً مهماً يبين كيفية تلقي المسلم لآيات التشريع لا سيما التي تحمل نهياً وتحريماً؛ إذ توجه -كما أشار صاحب التفسير القرآني- أنّ المؤمنين يتجاوبون مع هذه الأوامر ويلتزمون بها ولا يجدون حرجاً في نفوسهم من التقيّد بها متى كانوا فعلياً سائرين في دروب الإيمان ومراقبيها. (المترجم).

إنّ هاتين الآيتين تكبحان ما تُصرِّح به آياتٌ أخرى من حصرية امتلاك الحقّ المفضي للخلاص والنجاة في الآخرة وعلوّ الإسلام على أيّ دينٍ آخر. فهما يقرّان القيمة الخلاصية لجميع الأديان التوحيدية التي تنبثق كذلك من الإرادة الإلهية، كما تصرّان على ضرورة ممارسة الأعمال الصالحة باعتبارها الأولوية المقدمة. ولقد رأى المفكر الباكستاني فضل الرحمن (ت: ١٩٨٨) أن الآية ٤٨ تقدّم حلًّا نهائيًّا لمشكلة العالم متعدّد المجتمعات، حيث قال: «تكمّن القيمة الإيجابية لاختلاف الأديان والمجتمعات المؤمنة في ما قد يكون بينها من تنافس في الأعمال الصالحة»^(١).

إنّ هذه الآيات المحوريّة التي ذكرناها للتوّ حيّرت المفسّرين القدامى في أغلب الأحيان، حيث قلّلوا من أهميتها بالمرور عليها مرور الكرام (مثل الرازي والمودودي بالنسبة للآية ٤٨ من سورة المائدة)، أو قاموا بربطها بأحد (أسباب النزول) التي أفرغتها من أيّ معنى (كما في الآية ٩٣ من سورة المائدة؛ حيث يتم جعلها إشارة للمحاربين الذين قُتلوا في المعارك، وشربوا الخمر قبل تحريمها!)^(٢).

(١) FAZLUR RAHMAN, Major Themes of the Qur'ân, ١٦٧.

(٢) Voir S.H. BOUBAKEUR, *Le Coran*, I, ٢٥٠.

أما فيما يتعلق بالآية ٦٩ من سورة المائدة، والتي تكررت في الآية ٦٢ من سورة البقرة، فقد كتب المفكر الإصلاحي الهندي الباكستاني فضل الرحمن عنهما، قائلاً:

«سعى الغالبية العظمى من المفسرين المسلمين إلى تجنب الإقرار بالمعنى الظاهر لهاتين الآيتين، وهو: أن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات -من أي فئة كانوا من البشر- هم أناس ناجون وبمناى عن العذاب»^(١).

وتتمثل إحدى طرق إبعاد هذه الآيات عن أفق الفكر الإسلامي، والتي يتم تأييدها بشدة من التيارات الإسلامية الحالية، في الاتكاء على نظرية النسخ، وأن الآيات المتشددة والعنيفة من السورة التاسعة -على وجه الخصوص- نسخت عددًا كبيرًا من الآيات التي تطرح مضمونًا أكثر تصالحًا، بما في ذلك آيات سورة المائدة. وقد مررنا قبل ما في نظرية النسخ من ضعف، وكذلك جميع الأسباب التفسيرية التي تفرض ضرورة اعتبار سورة المائدة هي خاتمة الوحي القرآني، وبالتالي فلا يمكن نسخها.

(١) FAZLUR RAHMAN, *Major Themes of the Qur'ân*, Minneapolis, Chicago, Bibliotheca

Islamica, ١٩٨٠, ١٦٦.

وبدلاً من أن يخضع إبعاد بعض الآيات لرغبة المفسّر، نحنا بعضُ المفكّرين المسلمين المعاصرين ممن جاؤوا في إثر محمد عبده إلى أنه يجب الحفاظ على جميع آيات القرآن، لكن بشرط عدم وضعها جميعاً على قدم المساواة. ويعطي التحليل البلاغي أساساً موضوعياً للقيام بمثل هذا التصنيف لمعاني الآيات.



سابعاً: الخاتمة:

وفي الختام، دعونا نقول ببساطة أن اللجوء لتفسير نقدي ومنهجي يأخذ بعين الاعتبار أهمية النظر للسياق على نحوٍ خاص، من شأنه تمهيد الطريق لإنتاج تفسير للقرآن أكثر وفاءً للنص نفسه، وأكثر انسجاماً -رغم مفارقة ذلك- مع واقعنا المعاصر في ذات الوقت. ومن المؤكد أن هذا التفسير سيعارض التفسير التقليدي، ولكن بدون تعريض العقيدة الإسلامية للخطر بأي شكلٍ من الأشكال، إذ يسمح على العكس من ذلك بتسليط الضوء على الآيات المركزية في القرآن، التي ليست دعاوى حرب، ولكن دعوة لجموع المؤمنين -أيًا كانت ديانتهم- إلى التنافس في عمل الخير^(١).



(١) ذكر المؤلف في خاتمة الورقة أنه: «بسبب فقدان نصّ الورقة المقدمة للمؤتمر السادس عشر للمجتمع الدولي لتاريخ البلاغة (ISDR) المنعقد في (ستراسبورغ، يوليو ٢٠٠٧)، فقد تم استبدال ورقة قُدِّمَتْ لمؤتمر مشابه عقد في ليون ومارسيليا عام ٢٠١٠ به، ولم تشمل هذه الورقة على أية تعديلات عن سابقتها سوى تعديل العنوان وحذف السطرين الأولين». (المترجم).